قراءة

في الرواية الصادرة حديثاً عن دار «فواصل» بترجمة مريم عيسى، تحكي الكاتبة الكولومبية أنغريد روخاس كونتريراس قصّة فتاتين من طبقتين اجتماعيتين مختلفتين، تجمعهما مسارات الحياة وتُفرّقهما. سردٌ يبدأ بكولومبيا وينتهي في المنفى الأميركي

سومر شحادة

يمكن لروايةِ الكاتبة الكولومبية إنغريد روخاس كونتريراس «ثمار الشجرة المُسكرة» أن تحدث في أي زمن، فهي رواية عن الحرب واللجوء، يرويها أطفال من زواياهم الخاصّة. بذلك فهي روايةٌ تفترقُ عن الزمن وتبني عالمها في رحاب البراءة وفي ضيق القسوة في الوقت نفسه. في الروايةِ الصادرة حديثاً عن دار «فواصل»، بترجمة مريم عيسى، تفكيكٌ لعالم المخدّرات والجريمة باستخدام عقل طفولي يؤخّر الوعي بما حدث. عندما يكتشف الأطفال عُنف ما عايشوه في طفولتهم، تكون شخصياتهم قد تكوّنت على الصمت والحذر والهروب. لكن مهما يهربْ إنسانٌ لجيٍ خرج من بلدٍ يسكنه الموت إلى بلدٍ يرفلُ بالطمأنينة؟ تخبرنا كونتريراس بأنّه يهرب من ذاكرته إلى النّسيان.

تتناوب طفلتان قادمتان من عالمين مختلفين على سرد حكايتيهما. تنتمي بترونا إلى أحياء الصفيح الفقيرة، وتروي جانب أهلها من الحكاية، وهو جانبٌ انتقامي، يضفي وجهاً عدوانيّاً إلى القصة على الرغم من قيَم العدالة التي تتوارى وراء العنف، حدّاً تبدو العدالة التي تلتصق بالجريمة والخطف قيمةً زائفة تتسرّر بالعنف. تقارب الكاتبة موضوعاتٍ عديدة من غير أن تعرّفها على نحوٍ محدّد، بالتأكيد هذا من دروس الحرب، فالكاتبة تكتب حكايتها بحسب تصدير النّص.

أمّا عن الطفلة الثانية شولا، فهي تنتمي إلى أسرة غنية تقطن حيّاً سكنياً راقياً، وتروي جانب أهلها من الحكاية، وهو جانبٌ متعالٍ، يضفي وجهاً قاصراً إلى القصة على الرغم من قيَم السماحة التي تتوارى وراءَ ما هو دَعيٌّ وفصامي، حدّاً يبدو معهُ الخلاص الفردي قيمةً فُضلى ومثالية، وهو حلّ مشهودٌ لهُ في البلدان التي عرفت اقتتالاً داخلياً.

لكنّ الكاتبة لا تُوقف حكايتها هنا، وإنّما تروي مثالب الخلاص الفردي للعائلة التي أعادت في أميركا سيرة عائلة بترونا في كولومبيا. إذ تأخذ شولا، في أميركا، دور بترونا عندما كانتا تعيشان في كولومبيا، كما لو أنّ الحكاية ارتحالٌ بين فضاءين، كلّ منهما يصنع الآخر ويقابله في كفة الزمن الذي تدور دوائرهُ على البطلتين. تستخدم الكاتبة خياراً فنّياً مثالياً للسرد، حينَ تبدأ بترونا حكايتها وهي في عمر الخامسة عشرة، فيما تنتهي حكاية شولا وهي في عمر بترونا عند البداية.

تبني الكاتبة حياةً وتهدم أخرى على التوازي، وفي غمرة البناء والهدم تصنع توازناتٍ وتعقد مقارنات. تتبدّى الكتابة صفقة مع الذاكرة: اكتب ما تريد الخلاص منهُ كي أمنحك النّسيان. وهذا مشابه لعقيدة المجموعة التي لجأت إليها العائلة الكولومبية في الولايات المتّحدة.

تظهر حكاية الطفلتين هنا؛ سردهما لعذابات الفقر والاغتصاب من جهة بترونا، ولعذابات فقدان الأب والبلد وخيانات الأم وتقلباتها من جهة شولا، محاولةً للشفاء باستخدام الكتابة، لا سيّما أنّ الراويتين تبدأن البدايات ذاتها، صامتتين، بترونا أمام العائلة التي سوف تخدمها، حيثُ شولا تحصي الكلمات القليلة لبترونا، وفي بلد اللجوء تتذكّر شولا الخادمة بترونا، وتفكّر بالفتيات اللواتي يراقبن صمتها وارتباكها في أميركا ولربّما يعدّدن كلماتها مثلما كانت تفعل مع بترونا في كولومبيا. وعلى هذا الخيط الخفيّ الذي يربط البطلتين، وحول تلك الصلة التي حافظتا على سرّيّتها، تلتئم الحكايات الفرعية جميعها: لقد امتلكت الطفلتان، من غير أن تعيا، أسرار الرواية بالكامل، ومن ثمّ جعلت منهما الكاتبة راويتين عليمتين تواجهان الصمت؛ إحداهما تتقدّم نحو الأمومة، والأخرى تتراجع إلى الطفولة.

تعمل بترونا لدى عائلة سانتياغو التي تعطف عليها، لكنها تتورّط، بسبب خلفيتها الطبقية ، مع عصابة إجرامية وتتآمر على العائلة التي احتضنتها، حيثُ يُخطف الأب، وتنجو الطفلتان كاسندرا وشولا من عملية الخطف. تساعد بترونا الطفلة شولا على الهروب من الخاطفين، وتدفع ضريبة ذلك بأن تُخطف هي، وتُغتصَب، الثلاثة، والأطفال الذين يشمّون الغراء في أكياس ورقية، في بلدٍ حيث المكان المسالم الوحيد فيه هو المقبرة، وتبقى الشجرة رفيقتها عند الانتقال إلى أميركا حيثُ الماء متوفّر طوال الوقت.

في انتقال العائلة انتقالٌ من مواطني الدرجة الأولى إلى لاجئين معدمين، وقد تحوّلوا من أسرة إلى رقم في قضية اللجوء. أمّا الشجرة المُسكرة التي كانت في حديقة الدار في بوغوتا، أصبحت شولا تحملها معها، شجيرة، في كيس بلاستيكي إلى المكتبة، حيثُ تقرأ عن كولومبيا كي تشعر بالطمأنينة. وتصوّر الرواية أخيراً مشاعر اللجوء: «عندما استطعت الابتعاد عن الانتظار، ذهبت إلى كابينة الهاتف وطلبت الاتصال برقم منزلنا في بوغوتا. نسيت كم مضى من الوقت وأنا استمع إلى الرنين، كأنه صادرٌ من تحت الماء وبعيدٌ وضائع. تخيّلت بيتنا المهجور، ربما تملأه الآن صناديقُ سكّان جدد... كان الاستماع إلى رنين الهاتف وسيلةً للعودة إلى المنزل».

(كاتب من سورية)

إنغريد روخاس كونتريراس (جيريميا بارير)

منذ الرواية الأولى

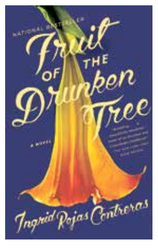

قلّة هم الكتّاب الكولومبيون الذين عرفوا شهرة واسعة وتالوا جوائز خارج بلادهم (وحتى خارج اميركا اللاتينية)، مع نشرهم رواياتهم الاولى، كما حدث مع انغريد روخاس كونتريراس في «ثمار الشجرة المُسكرة» (الخلاف). لا شكّ ان صدور العمل باللغة الانكليزية (2018) قد ساعد جزئيا في ذلك، واضعا تحت الضوء موهبة كونتريراس الكتابية، والتي اظهرتها في حقول اخرى غير الرواية، ولا سيّما في مقالاتها التي تنشرها الصحف الاميركية.

ثمار الشجرة المُسكِرة ستّ سنوات من عُمر كولومبيا

سردٌ للشفاء من الذاكرة

تفكيكٌ لعوالم المخدّرات والجريمة وللتفاوت الطبقيّ

روايةٌ تتقدّم نحو الأمومة وأخرى تتراجع إلى الطفولة

وتتركها عائلة سانتياغو تواجه مصيرها بمفردها. تُقدّم العائلة طلب لجوء إلى الولايات المتّحدة؛ يخرجون، ويلتحق بهم الأب بعد سنوات طويلة، فيما بترونا تفقد ذاكرتها وعائلتها في حي الصفيح، تعود إليها ذاكرتها بالتدريج، لتبني حياتها على أنقاض حياةٍ قديمة آفلة. تُلخّص هذه الحبكة الأحداث الكثيرة في الرواية (384 صفحة)، لكن بين هذه الأحداث الفردية، تنقل الكاتبة الفضاء العام في كولومبيا بدءاً من العام 1989 حتى عام 1995، وتُطابق الجدول الزمني للأحداث العامة مع الجدول الزمني لحكايتها. فالرواية تحدث في جوّ الاضطراب السياسيّ والاقتتال الأهلي، الاغتيالات والتفجيرات، وحروب عصابات المخدّرات، وهو فضاءٌ مسموم، دفع بشولا، التي شغلت أكبر مساحةٍ من السرد، إلى مقارباتٍ مؤلمة، إذ تُقارن والدها المُختطَف برجل العصابات الملاحَق وتاجر المخدّرات الشهير بابلو إسكوبار، وتجد شبهاً مع ابنته، خصوصاً عندما تُرسل شولا لأبيها - ولسنوات - تسجيلاً صوتياً من أميركا يُذاع عبر راديو في برنامج مخصّص للمفقودين: «مرحبا بابا، إنّنا نتذكّرك كلّ يوم...».

تبقى الشجرة المُسكرة رفيقة شولا في بلدها كولومبيا، حيث تلمح العنف من خلال تساؤلاتها البريئة عن معنى الاغتيال، ومشاهداتها الكثيرة التي منها: حذاء الطفلة المتبقّي بعد التفجير، والكلب بالأطراف ذاتها، صامتتين، بترونا أمام العائلة التي سوف تخدمها، حيثُ شولا تحصي الكلمات القليلة لبترونا، وفي بلد اللجوء تتذكّر شولا الخادمة بترونا، وتفكّر بالفتيات اللواتي يراقبن صمتها وارتباكها في أميركا ولربّما يعدّدن كلماتها مثلما كانت تفعل مع بترونا في كولومبيا. وعلى هذا الخيط الخفيّ الذي يربط البطلتين، وحول تلك الصلة التي حافظتا على سرّيّتها، تلتئم الحكايات الفرعية جميعها: لقد امتلكت الطفلتان، من غير أن تعيا، أسرار الرواية بالكامل، ومن ثمّ جعلت منهما الكاتبة راويتين عليمتين تواجهان الصمت؛ إحداهما تتقدّم نحو الأمومة، والأخرى تتراجع إلى الطفولة.

تعمل بترونا لدى عائلة سانتياغو التي تعطف عليها، لكنها تتورّط، بسبب خلفيتها الطبقية ، مع عصابة إجرامية وتتآمر على العائلة التي احتضنتها، حيثُ يُخطف الأب، وتنجو الطفلتان كاسندرا وشولا من عملية الخطف. تساعد بترونا الطفلة شولا على الهروب من الخاطفين، وتدفع ضريبة ذلك بأن تُخطف هي، وتُغتصَب،

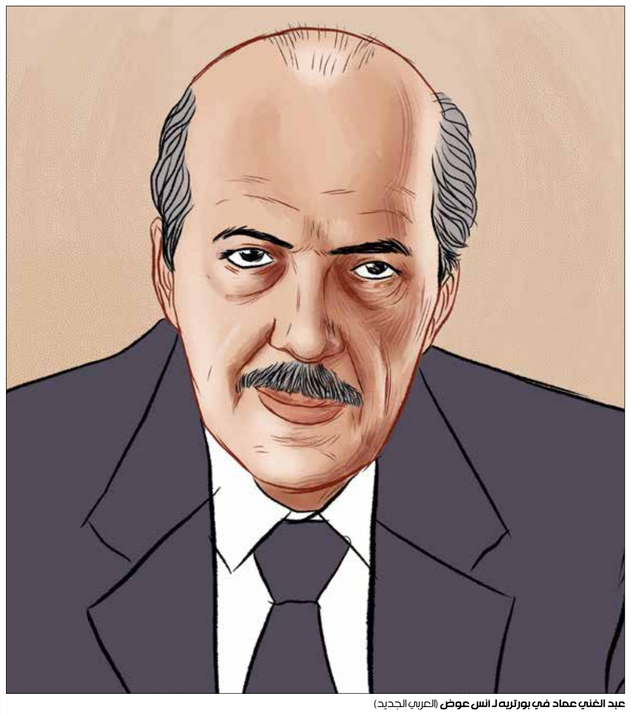

عبد الغني عماد في بورتريه لـ أنس عوض (العربي الجديد)

إضاءة

عبد الغني عماد تعطّل أجهزة إعادة الإنتاج المعرفي

علم الاجتماع في العزلة

رغم اجتهادات عالم الاجتماع اللبناني في تخصيب رؤيتنا للواقع العربي، فإن منجزه لم يحظ بعد باهتمام، وقد مرّت ذكرى رحيله مؤخراً في صمت

شوقي بن حسن

في الشهر الماضي، مرّت الذكرى الأولى لرحيل عالم الاجتماع اللبناني عبد الغني عماد. وكخبر رحيله منذ عام، مرّت الذكرى كذلك في صمتٍ لعلّه يشهد على العزلة التي يعيشها أمثال عماد من المُنكبّين على المعرفة، تحصيلاً وتأليفاً، ويشهد بخاصة على الواقع العربي لعلم الاجتماع الذي يبدو مثل معرفة معزولة عن المادة التي يدرسها.

وضع عماد أكثر من ثلاثين كتاباً، يمكن أن نوزّعها بين فئتين كبيرتين؛ الأولى تلك الكتابات النظرية التي كانت تبحث في أسس المعرفة الاجتماعية أو في فهم قطاعاتها المتنوعة، ومن أبرزها: «علم الاجتماع والبحث العلمي»، و«سوسيولوجيا الثقافة»، و«سوسيولوجيا الهوية»، و«الهوية والمعرفة.. المجتمع والدين»، وهي أعمال تتميّز بقدرة مؤلفها في إعادة بناء الإشكاليات باستدعاء مجمل المعرفة التي تناولتها، وكان من المُفترض - أو هكذا كان صاحبها يأمل - أن تغذّي هكذا مؤلفات ليس المجال التخصّصيّ فحسب بل حقولاً معرفية وإبداعية أخرى، لكن - والحال كما نعرف في البيئة الثقافية العربية - فإن هذا التأثير بقي باهتاً وممسوحاً، ويكاد اسم عبد الغني عماد أن يكون مجهولاً خارج دوائر المشتغلين بالعلوم الإنسانية.

أما الفئة الثانية من مؤلفات عماد فتلك التي يمكن اعتبارها مشاريع تطبيقية تُركّب فيها النظريات والمنهجيات ضمن رغبة في فهم قضايا حيّة تعبر المجتمع، فتُؤثّر فيه ويؤثّر فيها. وضمن هذه الفئة من المؤلفات نذكر: «حاكمية الله وسلطان الفقيه»، و«ثقافة العنف في سوسيولوجيا السياسة الصهيونية»، و«عبء الآخر: صورة العدو في العقل السياسي الأميركي»، و«الحركات الإسلامية في لبنان: إشكالية الدين والسياسة في مجتمع متنوّع»، وضمن هذه الفئة أتى أيضاً آخر إصداراته «في جينالوجيا الآخر.. المسلم وتمثّلاته»، وهي أعمال تشهد على تنوّع مشروع عماد السوسيولوجي، وإن كان من الجدير التنويه بأنه كثيراً ما جرى اختزاله في كونه خبيراً في حركات الإسلام السياسي، وما ذلك إلا شكل آخر من أشكال فرض العزلة.

كمزّ السحاب يعبر هذا المنجز الفكري على ثقافتنا العربية. عادة ما تجري الإشارة إلى كون الإنتاج المعرفي معطّل عربياً، لكننا مع عماد أمام إشكالية أخرى؛ هناك ديناميكية إنتاجية لا يمكن إنكارها، ورغم ذلك لا تبلغ فائدتها المجتمع، بل لعلها لا يبلغ أثرها الاختصاص نفسه أحياناً.

تحتاج المعرفة - بعد توفّرها - إلى إعادة إنتاج وإلا فهي مهدّدة بالتلف والضياع، وذلك هو حال منجز عبد الغني عماد. وحين ننظر حولنا سنجد أن نجّاح مفكرين مثل كارل ماركس وبيير بورديو ويورغن هبرماس في تأمين ديمومة التأثير المعرفي لا يعود إلى جودة الأجهزة المفاهيمية التي اقترحوها فحسب، بل أيضاً إلى توفّر أدوات إعادة إنتاج أفكارهم؛ من إحالات إليهم، ودراسات حولهم، وترجمات إلى لغات أخرى، وكتب عن سيرهم ومعاجم لمفاهيمهم...

لا تبدو ثقافة إعادة الإنتاج المعرفي متوفّرة في منطقتنا العربية، إلا بالحد الأدنى، ولقد كانت لعبد الغني عماد مساهمات فيها حين وضع كتاباً بعنوان «قسطنطين زريق: الداعية والمفكر القومي العربي»، كما نشر عماد في 2013 نصاً استعادياً بعنوان «حوار وأعتذار من عبد الرحمن الكواكبي» في مدوّنته الإلكترونية «منتدى الحوار لتجديد الفكر العربي». تعبّر هذه التسمية عن طموح يبدو أنه كان يخامر ذهن عالم الاجتماع اللبناني، ونجد أثره بسهولة في مجمل أعماله، حيث نقف على هاجس حُسن اكتساب المعرفة النظرية، وهي في الغالب مستوردة، ومن ثمّ حسن استثمارها في مقاربة إشكاليات الواقع المحلّي مع ما يقتضيه ذلك من مرونة وصبر. كل ذلك محكوم عليه اليوم بالحبس بين أغلفة الكتب. صمتٌ ينبغي كسره كي تتدفّق الأفكار وإلا فالأمر أقرب لاستسلام سيزيفي لمنطق البناء من الصفر في كل مرة...

> المعرفة التي لا يعاد إنتاجُها مهدّدة بالتلف والضياع

عبد الغني عماد في بورتريه لـ أنس عوض (العربي الجديد)

متابعة

مكتبجي ترميم العلاقة مع الكتاب العربي

رحلة نحو القارئ المثقّف

تزامناً مع «معرض عمّان للكتاب»، تطلق المؤسّسة رحلتها التي تسهّل وصول القرّاء من مختلف نواحي الأردن إلى عاصمته. هنا حديث مع القائم عليها

عمّان ـ محمود منير

أعلنت «مؤسسة الوراقون الثقافية» (مكتبجي) عن إطلاق رحلتها إلى «معرض عمّان الدولي للكتاب» في دورته العشرين التي تنطلق صباح الخميس المقبل وتتواصل حتى الثاني من تشرين الأول/ أكتوبر 2021، ويتخلّل الرحلة العديد من الأنشطة والفعاليات التي تستضيف عدداً من الكتّاب الأردنيين. تهدف الرحلة إلى توفير مواصلات سهلة وميسّرة لمختلف محافظات المملكة وبتكلفة رمزية، لتمكين القرّاء من الوصول إلى المعرض، بحسب سامر أمين، مسؤول المؤسسة، في حديثه إلى «العربي الجديد»، الذي يقول فيه: «المبادرة انطلقت عام 2017، حيث وجدتُ من خلال تعاملي مع دور النشر وبائعي الكتب والمؤسّسات الثقافية أن نسبة القرّاء كبيرة خلافاً لما يُروّج عادة، وهي تتزايد يوماً بعد يوم». يضيف أن «المشكلة لدى هؤلاء القرّاء الذي يُقدّرون بالآلاف هي أن الكتب التي بين أيديهم لا تقدّم شيئاً، أو أنها جيّدة لكنها لا تُقرأ بالطريقة الصحيحة، حيث لا يمتلكون أدوات حقيقية للقراءة، وهنا انبثقت 'مكتبجي' التي تسعى إلى تغيير طرق القراءة والياتها، والإجابة عن تساؤلات مثل: ماذا نقرأ؟ وما جدوى القراءة؟».

على هذا الأساس وُلد المشروع الذي استطاع أن يجمع قاعدة واسعة نسبياً من القرّاء على امتداد المحافظات الأردنية، ثم تكوّن فريق عمل لاحقاً لإقامة الأنشطة الثقافية التي تجمعهم، في «محاولة لترميم العلاقة بين الكاتب العربي والقارئ الأردني عبر تنظيم حلقات نقاشية حول مختلف النتاجات الإبداعية والفكرية»، على حدّ وصف أمين، الذي يلفت إلى أن «مكتبجي» دفعت إلى تجديد الصلة بين القارئ والأدب العربي التي توقّفت عند معظم الشباب عند الاطلاع على نصوص ربما تكون أحدثها لنجيب محفوظ، مع إقبالهم الملحوظ نحو قراءة الكتب المترجمة بغضّ النظر عن محتواها. أضاءت «مؤسّسة الوراقون الثقافية» على عناوين لا تعرضها وسائل الإعلام غالباً، أو لا تعرضها بالشكل الكافي، ولاحظ القائمون عليها أن الإقبال على قراءة الأدب الأردني يكاد يكون معدوماً، حيث تُعَدّ الأسماء المقروءة على عدد أصابع اليد، ومن هنا بدأ الاهتمام بكتّاب من مختلف الاتجاهات والأجيال الأدبية من أجل منح القارئ الأمل بوجود أدب أردني جيد ويستحق القراءة.

ولفت أمين إلى أن فكرة تنظيم الرحلات من وإلى «معرض عمّان» انطلقت قبل تأسيس «مكتبجي»، مع عدم تأمين المؤسسات الثقافية مواصلات مجانية أو بسعر رمزي تتيح للقرّاء في الأطراف زيارة المعرض، فكانت أولى مهامّ المشروع الجديد تنظيم رحلة شارك فيها مئة قارئ خلال دورته التي انعقدت عام 2017، ليصل عددهم إلى ثلاثمئة وخمسين من خمس محافظات في العام التالي. وتضمّنت الرحلة برنامجاً اشتمل على محاضرات وجلسات نقاشية وجولات منظّمة إلى أجنحة دور النشر المشاركة في المعرض، وتطوّرت الفكرة عام 2019 من خلال إقامة لقاءات أكبر مع كتّاب ومترجمين أردنيين وتوفير خصومات أكبر للقرّاء المرتحلين.

> عدد القرّاء كبير خلافاً لما يُروّج، وهو يتزايد يوماً بعد يوم

جدارية للفنانتين ميرامار ودلال متولي، حي اللويبدة في عمّان

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

فعاليات

حدث ذات مرّة في بيروت الغربية، هو عنوان معرض للتشكيلية اللبنانية **جوانا رعد** يُفتتح يوم الخميس المقبل، 23 من الشهر الجاري، في فضاء «زيكو هاوس» ببيروت ويستمرّ فيه حتى التاسع من الشهر المقبل. تقدّم الفنانة والمدرّسة في «الجامعة الاميركية» اعمالاً تتناول فيها تفاصيلَ من بيروت السبعينيات.

بالتزامن مع معرض «بلد وحدُّه البحر: محطات من تاريخ الساحل الفلسطيني»، يقيم «المتحف الفلسطيني» برام الله ندوة **الساحل الفلسطيني في المخيال: جدلية الروائي والتاريخي** في الرابعة من عصر الاربعاء المقبل، ويشارك فيها المورّخان **عادل منّاع** و**محمود يزبك** والاكاديمية **عادلة العايدي** والباحث **انطوان شلحت** والروائي **إبراهيم نصر الله** وقيّمة المعرض **إيناس ياسين**.

بدءاً من الثلاثاء المقبل، 21 ايلول/ سبتمبر، وحتى 7 تشرين الثاني/ نوفمبر، تُنظّم «مكتبة فرنسا الوطنية» في باريس معرضاً استعادياً للتشكيلي الفرنسي **جان كورتو**، بعنوان **جان كورتو، رسّام الكلمات**، حيث يضيء المعرض مسيرة الفنان (1925 ــ 2018)، الذي لطالما جمع في اعماله بين الالوان والحروف.

في السادس والعشرين من ايلول/ سبتمبر الجاري، يُفتتح في «غاليري مصر» بالقاهرة معرض **الرّحلة** للفنانة المصرية **علياء الجريدي**، ويستمرّ حتى الثامن من تشرين الأوّل/ اكتوبر المقبل. يضمّ المعرض عدداً من آخر اشتغالات الفنانة (1968)، التي تجمع في اعمالها بين التركيب والفيديو آرت والرسم.